سايكولوجية المدعو

المبحث الأول
الفهم المتبادل والتفاعل

الداعى شخص يهمه أن يعرف المدعو، ويزداد معرفة به، وأن يألفه ويسكن إليه حتى يتم التفاعل المطلوب بين الطرفين؛ لتتم العملية الدعوية بالصورة المطلوبة، وهذا أمر لا يحدث إذا لم يفهم الداعى مَدْعُوِّيه، ويتعرف عليهم عن قرب، ويتعامل مع مشاكلهم وهمومهم، ويفهم نفسياتهم وما يؤثر عليها سلبا وإيجابا..

ولكن كيف يتم هذا التفاعل النفسى؟ وما هى أدواته ووسائله؟ وما المنهج الذى يتم من خلاله؟ لنبين ذلك من خلال النقاط التالية:

نقاط لدراسة التفاعل عن بُعد:

لكى يتم الفهم الصحيح للمدعو، لابد من القيام بخطوات معينة تمكن الداعى من التعرف على المدعو ودراسته وتقويمه... ومن ثَمَّ الحكم له أو عليه، ومعرفة ما يصلح حاله... ونوجز تلك الخطوات فى النقاط التالية، دون الدخول فى تشعباتها.

١ ـ محاولة معرفة البيئة والمحيط الصغير الضيق الذى تفتحت عليه عينا المدعو، وأولها الأسرة التى يلزم معرفة أحوالها الاجتماعية، مثل علاقاتها

بالأقرباء والأهل ـ عموما ـ والجيران، وهل هى علاقات حميمة وودية أو متوترة؟ وإن كانت الأولى أو الثانية، فما الأسباب التى أدت إلى هذا النوع من العلاقات؟ وهل لها أسباب منطقية ومقنعة؟ وهل يمكن علاجها أو تحسينها؟ وما السبب فيها؟ وما الطرق التى يمكن أن تعالج بها؟

كما يلزم معرفة هذه البيئة الصغيرة من الناحية الاقتصادية والأحوال المعيشية، من حيث الرفاهية أو شظف العيش؛ لأن لكل جانب آثاره التى يتركها على نفس المدعو وما يكوِّن خصائصه الاجتماعية وتوجهاته السلوكية فيما بعد، فالترف والإسراف فى المأكل والملبس والمركب ووفرة متطلبات الحياة فى متناول اليد ـ لها آثارها النفسية التى منها تعوّد عدم المبالاة بما يلاقيه الآخرون وما يكابدونه ويعانونه، كما تميت الإحساس ـ غالبا ـ بالشفقة والرأفة حيال بنى البشر الآخرين، إضافة إلى الحياة الرخوة الناعمة التى تجعل صاحبها يهتز لأقل مؤثر، ولا يستطيع الصمود أمام المشاكل التى لا تخلو منها الحياة الإنسانية... فهم لا يزالون أبداً فى عناء وكبد ما داموا على ظهر البسيطة...

كما أن شدة الفقر المدقع وقلة ذات اليد، تسبب هى بدورها، المعاناة النفسية والقلق والضيق والتبرم بالحياة، والحقد على أصحاب الثراء وتمنى زوال نعمتهم...

وقبل هذا وذاك، يلزم دراسة ومعرفة المعتقد الذى تدين به الأسرة، فهو مربط الفرس فى تكوين وتشكيل الشخصية، فالتدين وعدمه له مردوداته وانعكاساته على السلوك البشرى بصورة أوضح من كل مؤثر آخر، حيث يتأثر الإنسان بمعتقده أكثر من تأثره بأى شىء آخر. وهذا ما نسميه: بمؤثر التنشئة الأولى، التى تؤثر حتى على الطبع الغريزى، وتهذبه وتشذبه، وهذه المرحلة الأولى لتشكيل الشخصية البشرية، فإن صلحت كان الشخص أقرب

إلى الصلاح، وإن فسدت كان أقرب إلى الفساد... ثم تليها مرحلة أخرى هى:

٢ ـ مؤثرات البيئة الخارجية أو المحيط خارج الأسرة، مثل الأصدقاء الذين ينشأ وسطهم الناشئ، فهم إما جلساء صالحون، وإما جلساء طالحون، مما فصلناه فيما سبق[١].

٣ ـ التكوين الثقافى المعرفى، وهذا يتناول التكوين الأول، خاصة فى مراحل التعليم الأولى واللاحقة، ونوع المنهج التعليمى، وتوجيه الدولة لهذا المنهج حسب الوجهة التى تراها... ثم يلى ذلك أو يساعده ما يطلع عليه الشخص بطريقته الخاصة حسب ما يروج فى البلد من اهتمامات الناس الثقافية..

٤ ـ معرفة هوايات المدعو، قبل الإقدام على تقديم الدعوة له، حتى يمكن التعرف على تلك الهوايات؛ لتحديد الصالح منها وتنميته، وتعيين غير الصالح لهدمه بالطرق التى لا تخدش شعوره، ولا تنفره من الداعى، ولا تحول بينه وبين الاستجابة للدعوة.

٥ ـ معرفة طموحاته وتطلعاته المستقبلية وما يستشرف الوصول إليه؛ فإن معرفة ذلك تعطينا مؤشرات على نفسية المدعو التى نجتهد للوصول إلى معرفة ما يؤثر عليها...

٦ ـ دراسة التيارات الفكرية السائدة فى البيئة وألوانها وأشكالها، وما ترمى إليه، وما يعتنقه الشخص المدعو منها، وما يحبه وما لا يحبه، مع معرفة أسباب ذلك كله، ولماذا اندفع لهذا الاتجاه وأيده، ولماذا عارض الاتجاه

(١) انظر ص ١٠٥ من هذا الكتاب.

الآخر، وما أمثل السبل لدعوته إلى الحق، وما السبيل الناهجة لتعرية تلك التيارات وكشف ما يحويه فكرها من باطل وزيف...؟

تلك النقاط كانت لإمكانية معرفة المدعو عن بعد؛ لكى يتمكن الداعى من إيجاد أرضية مشتركة بينهما للتعاون على نشر الدعوة وإيصال الحق للبشرية... وتليها:

نقاط لدراسة التفاعل عن قرب:

بعد تلك المراحل المتقدمة من محاولة التعرف على المدعو واستكشاف أحواله وما يؤثر عليه، نلخص فيما يلى المرحلة التالية، التى نقترب فيها من المدعو لإمكانية حصول التفاعل والتجاذب المطلوب بينه وبين المدعو، وهى ما نسميها، بمرحلة الاستجابة أو قبلها بقليل، وتتلخص فى النقاط التالية:

النقطة الأولى: اللقاء العابر:

إن أكثر ما يبرز براعة الداعى وقوة جذبه، هو اللقاء الذى يتم لأول مرة بينه وبين المدعو، سواء أكان فى مكان عام أم خاص، وسواء أكان الداعى متحدثاً فى ذلك اللقاء أم معلقاً أم مستمعاً... فالمهم فى كل ذلك أن يكون للداعى ظهور يمكِّن المدعو من التعرف عليه والالتقاء به، وهنا يلزم الداعى الحرص الشديد على استمالة المدعو إليه ولفت انتباهه بأية صورة من الصور، وأن يبتعد عن كل ما يمكن أن يعطى المدعو عنه انطباعا سيئا، وأن يحاول أن يترك فى ذهنه آثارا طيبة، وذكريات حسنة، تجعل المدعو يتذكر ويتمنى لو يلتقى به مرة أخرى، ومن أدوات ذلك:

١ ـ الابتسامة، والبشاشة، وطلاقة الوجه، ولين الكلام، وحسن الاستقبال.

٢ ـ ومنها الظهور بالمظهر الحسن، فى الهندام والسمت العام، والطلاقة فى الحديث، والبعد عن التقعر والتفيهق والتنطع فى الكلام، كما قال، صلى الله عليه وسلم، مشيرا إلى وجوب البعد عن تلك السلوكيات: (هلك المتنطعون. قالها ثلاثا...)[1].

النقطة الثانية: ما بعد اللقاء العابر:

بعد ذلك اللقاء الأول، أو ما أسميناه باللقاء العابر، بعد ذلك اللقاء الذى نفترض أنه حدث فيه ما يجعل الخيط مشدودا والجسر ممدودا بين الطرفين ـ الداعى والمدعو ـ تأتى بعد ذلك، مرحلة أخرى، وهى التى نسميتها: بمرحلة المحادثة الطويلة والجلسة أو الجلسات التى تتيح للجانبين تعرف بعضهما على بعض على مهل وتأن وترو، وفى هذه المرحلة يتم التعارف، ويتبادل الجانبان بعض الشئون التى تهمهما، ويتعرف كل طرف على ما عند صاحبه من أفكار وتصورات لشتى الموضوعات المطروحة فى الساحة بالحاح.

وفى هذه المرحلة يلزم الداعى أن يبذل كل جهد ممكن؛ ليبرز للمدعو أفضل ما عنده؛ حتى يجذبه إليه، ويحفزه إلى اللقاء به مرات عديدة... وهو ما نبحثه فى النقط التالية:

النقطة الثالثة: اللقاءات المتكررة:

وهذه تكون فى شكل زيارات فردية، أو لقاءات جماعية، تتم فى شكل محاضرات أو ندوات يشترك فيها عدد من الدعاة، ويحضرها عدد من المدعوين، ويفضل ألا تكون (على الناشف) كما يقولون، بل تقدم فيها بعض المشروبات أو الوجبات، حسب الوقت الذى يتم فيه اللقاء، وإن أمكن

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، كتاب العلم، باب (٧)، النهى عن الاختلاف، ١٦/ ٢٢٠.

أن تكون فيها بعض الهدايا الرمزية، فهو أمر حسن ومحبب إلى النفوس وأقرب إلى الألفة ودوام المودة، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وغر الصدر، وفى رواية الترمذى: وحر الصدر، بالحاء، بدل، وغر...)[1].

وليس من الحكمة فى شىء أن يلتقى الداعى بأناس ويتعرف عليهم - وهم فى حاجة إليه - ثم يتركهم، لا يزورهم ولا يلتقى بهم، فإن الزرع لا ينبت ولا يؤتى ثماره بدون تعهد ورعاية، كما أنه لا تحصل الألفة والمعرفة التامة بدون تكرار الزيارات واللقاءات الْفَيْنَةَ بعد الأخرى... ولقد ذكرنا فى مكان آخر[2] أنه على الداعى أن يتعهد المدعو من كل الجوانب حتى لا يترك له فراغا فى جانب من الجوانب، إن لم يملأها هو ملأها غيره، خاصة ما يتعلق بالجانبين الروحى والثقافى، وفى كلا الجانبين عليه أن يحرص على تزويده بالصحيح النافع، فهو وحده الذى يدلف من الحق، ويثبت أمام التيارات المضادة الفاسدة، ويقى من ردات الفعل والانتكاسات التى تأتى عن مداخل الشيطان...

النقطة الرابعة: مرحلة النصرة والمؤازرة:

وهى المرحلة التى يتكون فيها لدى المدعو الفكرة الكاملة عن الدعوة التى اقتنع بها وبدوره أخذ يعمل على نشرها وذيوعها، ونصرتها فى كل مكان، وبهذا يتم التكامل بين الداعى والمدعو، ويصبح المدعو من الدعاة إلى الحق العاملين على نشره وتمكينه...

وهذا هو منهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى الدعوة، حيث كان يعرضها على الناس فرادى، كما فعل مع أبى بكر وعلى وغيرهما، وكما كان

(١) المسند للامام أحمد بن حنبل، ٢/ ٤٠٥، والترمذى أبواب الولاء والهبة باب (٦) ٣/ ٢٩٨.
(٢) انظر كتابنا: منهج تقديم الدعوة.

يعرضها على الجماعات والمجتمعات، فكان يتجول بالأسواق وأماكن التجمعات وموارد المياه، وكان يزور البلدان، فذهب إلى الطائف ليدعو ثقيفا، وكان يكرر اللقاء، كما فعل مع وَفْدَى الأنصار فى العقبة الأولى والثانية، وكان يرسل لهم من يعلمهم ويتعهدهم الْفَيْنَةَ بعد الْفَيْنَةِ، فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة ومعاذاً إلى اليمن. . . وهكذا مما هو مبثوث فى كتب الحديث وكتب السيرة. . .

النقطة الخامسة: تشكيل شخصية المدعو:

فى هذه النقطة الأخيرة ينصب العمل، ويتضافر الجهد، وتتكامل الحلقات التى يعاد من خلالها تشكيل شخصية المدعو وصياغتها صياغة جديدة، وتغذيتها بمختلف أنواع الغذاء الذى يجعل منها شخصية ثابتة، ويكسبها الاستقلالية فى الفكر والرأى والعمل، كما يشحذها للاستعداد للتضحية فى سبيل الدعوة، وبذل المال والوقت والنفس فى سبيل إنجاحها، وهو المنهج الذى تشكل عليه صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث جعل منهم أمة مختلفة تماما عما كانوا عليه، ففتحوا الآفاق، ونشروا الحق حتى أوصلوا نوره إلى العالمين كافة. . .

المبحث الثاني
استمالة المدعو وعوامل جذبه لتغيير أفكاره

لابد للداعى وهو يسعى للإصلاح عن طريق معرفة دواخل نفسية المدعو ـ لابد له من أن يعمل على استمالته إليه، وتقريبه منه فكريا وثقافيا. . .

وآخر درجات التغيير هى توافر عوامل الجذب والاستمالة، بحيث يجعل المدعو يتكيف مع أفكاره ومنهجه، ولا يكون ذلك إلا باتباع عدة خطوات، وتوافر عدة عوامل، نذكر منها:

١ ـ العمل على إحداث التوازن النفسى لدى المدعو، ويكون ذلك بمحاولة جعل نفسيته هادئة ومطمئنة، وألا يعمد الداعى لما يمكن أن يثير غضبه، مثل أن يغلظ عليه فى القول أو يشتد فى الحوار بلهجة حادة أو يذم ما له قيمة وتقدير عنده مباشرة. بل يلزمه أن يستعمل التورية والكناية، ويضرب الأمثلة البعيدة، ويتركه ليعرف ما يقصد من خلال الأمثلة العامة؛ حتى يترك عنده تساؤلات حول مدى صلاحية ما هو عليه من فكر ومنهج وأسلوب معتقد. . . . ويعطيه البديل الذى يقارن به ما عنده، أو ما نسميه: بالقضية التشكيكية، أو ذات الأطراف المتعادلة، التى كان يستعملها الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما علمها إياه القرآن الكريم، مثل قوله، تعالى:

﴿ ... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وهذه المعادلة المحايدة تجعل المدعو يفكر بعمق فيما هو عليه من معتقد أو فكر، كما تجعله ينظر إلى الداعى نظرة متوازنة؛ ذلك لأن الداعى لم يقل له: إن وجهة نظرى هى الصحيحة التى أصابت عين الحقيقة، وأنت المخطئ، لم يقل له ذلك من أول وهلة، كما يفعل أصحاب النظرة الْعَجْلَى، بل وازن بين الفكرتين، وجعلهما تحت منظار الفحص العلمى الدقيق... وفتح للطرف الآخر (المدعو) مجالاً للبحث فيما عند الفريقين.

وبهذه الطريقة يتبين الحق الذى مع الداعى، كما يتضح الباطل أو الخطأ الذى عليه المدعو...

٢ ـ من عوامل استمالة المدعو بغية تغيير أفكاره الخاطئة، وجذبه نحو هدف الداعى ـ ما نسميه: بعملية العزل الاجتماعى، والعزل البيئى... وذلك بالابتعاد به عن المحيط الذى يؤثر عليه سلبا، سواء أكان ذلك من حيث البيئة أو الجماعة التى ينتمى إليها؛ لأن عدم العزل وتركه مع تلك الجماعة أو فى تلك البيئة يجعل عملية التأثير عليه سلبية، إن لم تكن معدومة الفائدة، وهنا يصدق المثل المشهور فى هذا البيت الشعرى:

ألقاه فى الْيَمِّ مكتوفاً وقال له إياك، إياك أن تبتل بالماء !!

ومنهج تنظيف البيئة بإبعاد أهل الشر عنها، أو إبعاد المدعو عنهم ـ هو منهج دعوى قرآنى، حيث أمر الله ـ تعالى ـ نبيه، صلى الله عليه وسلم، أن يبعد تلك الفئات الخبيثة ذات الأفكار التى تسمم البيئة، خاصة أن المدعوين عهدهم بالدعوة قريب، فربما أثرت فيهم الأفكار المنحرفة...

(١) سورة سبأ ـ من الآية (٢٤).

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

فمثل هؤلاء لابد من الابتعاد بالمدعو عنهم؛ حتى تصح له البيئة، ويعرف الحق، ثم لا يضره بعد ذلك شيء.

ومثلما يبتعد عن المحيط المُلَوَّث، كذلك يُقَرَّبُ من البيئة الصالحة النظيفة التى تؤثر فيه إيجابا؛ حتى يعرف الحق عن قرب، ويذوق حلاوة الإيمان بقربه من الصالحين: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ... ﴾[2].

وواضح من الآية القصد من الجوار الصالح هنا، وهو أن يسمع كلام الله؛ ليعرف الحق من الباطل، ولا يكره على قبوله بعد السماع، بل المقصود هو السماع، ثم تترك له حرية الاختيار بعد ذلك...

وهذه إحدى وسائل الدعوة، ومقصد من مقاصد القتال، وهو أن يسمح للناس بأن يسمعوا الحق، ثم تترك لهم حرية الاختيار بعد ذلك، أما أن يُحْجَبَ الحقُّ عن الناس وأن يُصَدُّوا عنه، فهو أمر غير عادل، ومنهج أعرج، وهو ما تفعله قوى الضلال والاستكبار فى كل وقت وزمان، وقد يكون حجب الحق بقوة القانون السلطى، أو بقوة الآلة الإعلامية الضخمة بهيمنتها على وسائل نقل الخبر وإيصاله للناس، فتبرز الباطل وتحجب الحق...

وليس بمنهج سليم ذلك الذى ينادى به بعض التربويين عندما يقولون: نستمر فى التربية، ولا تهمنا سلامة البيئة ونظافتها!! وهم بهذا كمن يحرث فى البحر، أو كما قال الشاعر:

(١) سورة الأحزاب ـ الآية (٦٠)

(٢) سورة التوبة ـ من الآية (٦).

متـــى يـــبلـــغ البـــنيان تمـــامـه إذا كنـت تبـــنيه وغيـــرك يـهـدم؟

ومثل ذلك كمثل إنسان يغتسل بماء طاهر وهو يخوض فى ماء نجس، فكلما اغتسل صار نجسا!! ولكن المنهج السليم هو كما تقول الحكمة: التخلية قبل التحلية.

ولكى تنجح الدعوة النجاح المطلوب، فلابد من تزامن نظافة البيئة مع العمل الدعوى، كما لابد من تزامن التربية السليمة مع إصلاح المنهج التعليمى، فلايمكن الطهارة مادام الإنسان يخوض فى وحل من النجاسات!!

وهذا المنهج هو الذى جعل عمل المصلحين يسير فى الخطوات العكسية، ويحد من الأثر الحميد، وربما ينعدم المردود الطيب له، لا سيما مع كثرة الباطل وقوته واستعماله لأعلى وسائل التقنية الحديثة.

ثم بعد إبعاد المدعو عن الجماعة والبيئة غير الصالحة، لابد من إعطائه البديل، وذلك بضمه إلى مجموعة صالحة خيرة ترعاه وتؤانسه، وتسد عليه الفراغ الذى خَلَّفَهُ تَرْكُهُ لجماعته الأولى، إضافة إلى التحصينات المتينة ضد العدوى التى ربما تطرأ عليه مستقبلا، وحتى لا يكون قابلا للتأثيرات الخارجية وذلك:

٣ ـ إحداث التغيير الثقافى والاقتصادى له، حتى يستطيع الدفاع عن نفسه، ويكون له رأى وفكر يعتز بهما، وتكون له القدرة ـ مستقبلا ـ على التأثير فى غيره، وحمل رسالته الدعوية الجديدة باعتزاز وثقة وثبات..

كما لابد من تأمين الجانب الاقتصادى له؛ حتى لا يلجئه الفقر والعوز إلى من يؤثر عليه؛ لأن أكثر ما يحدث الخلل فى توازن الإنسان الجانب المادى وضغط الجوع وإهانة المسغبة له، فيدفعه ذلك إلى اللين فى دينه، وهو ما يفعله الْمُنَصِّرُون فى البلدان التى ابتليت بالمجاعات والقحط، حيث يمدون

لقمة العيش والكساء والدواء مصحوبة بالصليب، مع التركيز على أنها منحة مهداة من (يسوع المسيح) الرب المخلص!!

والمنهج السليم فى الدعوة مع مثل هؤلاء الجياع هو سد حاجتهم أولاً، ثم يصحب ذلك بالدعوة لهم بانتهاج المنهج السليم؛ حتى لا يغريهم الآخرون باستغلال الحاجة التى لا يستطيعون دفعها، أما مع من هم ليسوا فى حاجة إلى المادة، فالأمر يختلف من حيث المنهج والأسلوب والوسيلة، حيث يقدم الفكر الناضج والحجة المتينة والمنهج الصحيح والأسلوب الجذاب، والبدائل التى تسد الفراغ الفكرى والخواء الروحى، وتهدئ النفس الثائرة، وتؤمن القلب الواجف، وتزيل الران، وتذهب الريب، وتوقف التردد..

والمتتبع للمنهج القرآنى الذى سلكه الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجد أنه يقدم لكل فئة ما يناسبها من الأسلوب والوسيلة حسب حالها: فمنهم من يحاججهم ويجادلهم، ومنهم من يكتفى بإعطائهم ما يقيم أودهم ويدفع عنهم ذل المسغبة، ومنهم من يكتفى معه بذكر الثناء عليه وإسماعه الكلمة التى تثلج صدره، وتعيد إليه كرامته، وتذكره بمجده، وتطمئنه بأنه لن يكون فى مؤخرة الركب إن هو قَبِلَ الدعوة واقتنع بها، وإن كان الذى يمنعه هو سلب مكانته، كما فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أبى سفيان عند دخوله مكة بقوله: (مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمِنٌ...)[1].

وفى الجانب الآخر كان عطاؤه، صلى الله عليه وسلم، يعمل عمله التأثيرى فيهم، مما جعل أحدهم ينادى قائلا:

(... أى قوم، أَسْلِمُوا، فوالله إن محمداً ليعطى عطاء ما يخاف الفقر،

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الخراج والإمارة والفئ باب ما جاء فى خبر مكة ٣/ ١٦٠، والمسند للإمام أحمد ٢/ ٢٩٢.

فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)[1].

وكان يقول، صلى الله عليه وسلم، فى دعوة أصحاب المكانة الاجتماعية: (أَقِيلُوا ذوى الهيئات عثراتهم..)[2].

هذا مع تعريف المدعو، التعريف الكامل بالاتجاه الجديد الذى تحول إليه، وأن يفقهه فيه جيدا؛ حتى تكون عنده الملكة التى يدافع بها عن نفسه ومعتقده، ويحمل بها الدعوة للآخرين.

٤ ـ تغيير المسار النفسى، ويكون ذلك بتحويل المزاج الحالى للمدعو، إذا كان هذا المزاج يسير فى اتجاه لايخدم الدعوة، وينحرف بها عن الخط الذى رسمه لها الداعى، فإذا كان المزاج النفسى يتسم بالغضب أو إثارة مشاكل معينة بين عدد من المدعوين خاف الداعى أن يحدث ذلك أثراً سيئاً فى نفسية المدعوين، مما يحدث بينهم شرخا يضر بالمنهج الدَّعَوِىِّ، فما عليه إلا أن يعمل على تغيير هذا المسار الذى عليه المدعو إلى مسار آخر، سواء أكان ذلك التغيير باستحداث موضوع فكرى جديد يحتاج إلى تفكير وتأمل؛ ليحدث التفاتة عما أغضبهم أو يشغلهم بعمل يصرف التفكير عن الموضوع الذى يود صرفهم عنه..

والخلاصة هنا، أن من أفضل ما يعمل على إحداث تغيير فى المسار غير المرغوب فيه العملَ على صرف الناس عما هم فيه، وتحويل عملهم إلى عمل آخر، والموضوع الذى يتحدثون عنه إلى موضوع آخر، وربما احتاج الأمر إلى إنهاكهم بشىء يتعبهم جسميا ويرهقهم عضويا؛ لأن الإرهاق

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل برقم (٥٨) انظر: شرح النووى ١٥/ ٧٢.
(٢) مسند الإمام أحمد ٦/ ١٨١. وأبو داود كتاب الحدود باب (٤) فى الحد يشفع فيه.

العضوى الجسدى المحدود، تتغير معه الحالة النفسية للإنسان، الأمر الذى يؤدى به إلى نسيان ما هو فيه ويصرفه عنه، ولو إلى حين. . .

كما يمكنه أن يصرفهم عن الموضوع الذى سبب لهم الفُرْقَةَ بموضوع آخر أكبر منه، تكون له أهمية تطغى على الأول فينصرفون إليه، وبالتالى ينسونه؛ حتى تزول الحالة النفسية غير المرغوب فيها. .

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك مع الصحابة، فمن ذلك ما فعله بهم عندما وقع شجار وشحناء ثارت فيها نفوس الناس من مهاجرين وأنصار، عندما تقاتل أجير للأنصار مع أجير للمهاجرين، بسبب تزاحم على مورد ماء، وأزكى نار الفتنة بينهم رأس النفاق، ابن سلول، ولكى يحول الرسول، صلى الله عليه، مسار النقاش، ويلهيهم عنه بشىء آخر يشغلهم، فقد أمر بالارتحال، ونادى به على عجل كأن أمراً غير عادى قد حدث، فَعَلَ ذلك فى وقت لم يكن يرتحل فيه، حتى يُلْهِيَهُمْ ويصرف انتباههم، ويحول مسار النزاع إلى الاشتغال بالاستعداد للرحيل، فسار بهم يوما وليلة وصدرا من نهار اليوم التالى؛ حتى ينهكهم جسديا؛ لينشغلوا عند نزولهم بالنوم، ولا يكون لهم مجال للحديث فيما كان بينهم، وليزول ما بأنفسهم بالتقادم، فتهدأ النفوس الهائجة. . . يقول الراوى:

(. . . ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وَصَدْرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض، فوقعوا نِيَاماً، فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث. . .)[1].

(١) البخارى بشرحه فتح البارى: كتاب التفسير سورة (المنافقون) ٣/٢٠٢. والترمذى: كتاب التفسير (سورة المنافقون). ومسند أحمد ٤/ ٣٧٠. والرحيق المختوم للمباركفورى ص ٣٣٠. نشر دار الحديث بالقاهرة (بدون تاريخ).

وهناك أنواع كثيرة وطرق عديدة لإحداث التغيير تستعمل من قِبَلِ الجماعات التى تعتنق مبادئ معينة تدعو لها: منها ما يسمى بالتغيير الْقَسْرِىِّ أو الإكراهى[1].

وهذا التغيير قليل الجدوى خاصة على المدى البعيد؛ لأن المدعو ـ هنا ـ لا يقبل الفكر الجديد إلا تحت الإكراه، سواء أكان ماديا أو اجتماعيا أو سياسيا، مثل الذى ذكرناه عن عمل المنصرين، وهذا لا أفضله للدعاة، وهو ليس من منهج الإسلام فى شىء، حيث لا يكره الإسلام الناس على مبادئه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ... ﴾[2].

﴿ ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ... ﴾[3].

(١) انظر: علم النفس الاجتماعى، ص ٢٠٤، د/ توفيق مرعى وأحمد بلقيس.
(٢) سورة البقرة ـ من الآية (٢٥٦).
(٣) سورة يونس ـ من الآية (٩٩).

المبحث الثالث
الدراسة الانفرادية لسايكولوجية المدعو

لكى يفهم الداعى مَدْعُوِّيه لابد أن يدرس نفسياتهم بصورة منفردة، كل واحد منهم على حدة؛ لأن الدراسة المنفردة تتيح له التعرف الكامل على سايكولوجية المدعو ودواخله واهتماماته وطموحاته، وبذلك يستطيع أن يجعله يفضى له بمكنون سره، كما يكون ذلك أدعى لقبول النصح الإرشاد وسرعة التقبل لما يرشد إليه، بعد تمكن الداعى من فهم نفسيته. . .

وهذا النوع من الدراسات السايكولوجية الدعوية يحتاج إلى زمن طويل وصبر أطول، كما يحتاج إلى المراقبة الدقيقة الواعية ووضع الفرضيات المتعددة لتفسير سلوك المدعو، تفسيرا صحيحا؛ حتى تأتى النتائج مقاربة للواقع، إن لم تكن مطابقة له تماما، ثم يتبع ذلك تحليل تلك الفرضيات التى قامت بدورها على ملاحظات علمية سبقتها. .

ولابد ـ هنا ـ من التكرار المستمر للتحليلات لضمان سلامة النتائج، كما لابد من وضع العلاج لما يراه الداعى من سلوكيات غير منسجمة مع الشخصية الإسلامية. .

ويستند العلاج إلى عدة طرق، وتستعمل فيه وسائل كثيرة، مثل الحوار

الذى يـتنطق فيه الداعى المدعو بإيراد أسئلة منتقاة، وَبِضَرْبِ الأمثلة من الواقع الذى يعايشه المدعو لإقناعه بما يريده منه، ولتعديل سلوكه..

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يفعل ذلك كله وزيادة، وبأساليب تناسب حال كل مدعو... كما استعمل الصحابة طرقا من هذا القبيل، نذكر نماذج منها فيما يلى:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن أعرابيا أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن امرأتى ولدت غلاما أسود وإنى أُنْكِرُهُ!!

فقال له النبى، صلى الله عليه وسلم، هل لك إبل؟

قال: نعم.

قال: ما لونها؟

قال: حُمْرٌ.

قال: فهل فيها من أورق؟

قال: نعم.

فقال: رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَأَنَّى هو؟!

قال: لعله ـ يا رسول الله ـ يكون نَزَعَهُ عِرْقٌ له!!

فقال: النبى: صلى الله عليه وسلم، وهذا لعله يكون نَزَعَهُ عِرْقٌ له!!)[1].

فى هذا الحوار الهادئ الذى يجذب النفس، ويهدئ الثورة، ويطفئ نار

(١) رواه مسلم فى كتاب اللعان، انظر: شرح النووى عليه، ١٠/ ١٣٣.

الغضب، جاء هذا الرجل بنفسية سيئة وتهمة أسوأ، حيث وسوس إليه الشيطان بأن هذا الغلام الذى يخالف لونه لون العائلة ليس ابنه!! واتهم زوجه من غير جريرة بتهمة ربما كانت هى براء منها. فهو لم يؤسس دعواه على حجة دامغة، ولم يُقِمْها على بَيِّنَةٍ ولا مُسَوِّغ شرعى تستند إليه، وإنما هو نوع من الوهم والشك الذى يصيب بعض الناس، وربما تحول إلى مرض نفسى إن ترك وشأنه حتى استفحل وعتا، ويمكن أن يدمر حياة الإنسان، وينغص عليه عيشه، ويعكر صفو الأسرة، ويزلزل الأرض من تحتها؛ ولهذا فهو يحتاج إلى دراسة خاصة وحكيمة؛ حتى ترد النفس إلى صوابها، وتلزم غرزها... وهذا ما فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع الرجل آنف الذكر، حيث دخل عليه من مدخل منطقى هادئ يلمسه فى واقع حياته، ويعايشه فى بيئته، ولم يدخل معه فى جدلية عقيمة تفسد عليه ذوقه، ولا تصل إلى دواخل نفسه: بل أتاه بما يلامس كوامن النفس الخيرة، ويبعث فيها النخوة، ويحيى الفطرة، ويلزمه الحجة بالبرهان المحسوس الواقعى، مستدلا بعلم الوراثة، فلفت انتباهه إلى شىء يعتنى به ويحرص عليه، وهو نجابة الإبل وتحرى أصولها وجودتها، ونبهه إلى الطفرات الوراثية، كما يسميها علماء الوراثة، والتى نسميها نحن، بنزع الْعِرْق، فبدأ بالسؤال العام ليهدئ من ثورته، ويلفته إلى شىء آخر يبتعد به عن محور القضية التى جاء من أجلها... وهذا من أفضل مكنات النفس، وهو أن تصرف الشخص ـ ولو مؤقتا ـ عن القضية التى أثارته، وسببت له المعاناة النفسية حتى يهدأ، ثم يكون مستعدا بعد ذلك لقبول النقاش وتقبل الفكرة، ويرجع إليه وعيه، ويثوب إلى رشده، وهذا ما يفعله علماء النفس مع مرضاهم، حيث يبدءونهم بأسئلة طويلة يرجعونهم فيها إلى تاريخ حياتهم الأولى، ويذكرونهم بماضيهم، ليبعدوهم عن الحالة الشعورية الحالية، وليعرفوا خلفياتهم،

فيضربوا عصفورين بحجر واحد. . . وهو ما يسمى بلفت الانتباه أو الابتعاد بالذاكرة عن المحيط لتفرغ من شحناتها الدافعة لها. . .

ولهذا لم يدخل النبى، صلى الله عليه وسلم، معه فى حوار مباشر حول طهارة زوجه ونقاوتها وعفتها، أو طلب البينة منه على ذلك؛ لأنه لو فعل معه هذا لما أمكن إقناعه تماماً، حتى لو اقتنع فى الظاهر فسوف تظل تراوده هواجس الشيطان، وتتردد عليه صورة زوجته التى أنجبت له ابنا يغاير لونه لون العائلة، بل ربما القبيلة، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم، سأله سؤالا بعيدا ـ فى ظاهره ـ إن كانت له إبل، فى حين أنه جاء يسأل عن ابنه وامرأته، فهو هنا سوف تدخل عليه الحيرة والتساؤل، لماذا يسألنى عن الإبل وأنا جئته لأمر مهم كهذا؟! ويبدأ يسرح بخياله، ويتأمل لعله يجد تفسيراً لذلك، كما أنه يكون مشدوداً عن سبب هذا السؤال، وعندما أجاب بأن له إبلا، بادره الرسول صلى الله عليه وسلم، بسؤال آخر عن لونها، فلما أجابه بذلك، أردفه بسؤال آخر: هل فيها جمل يخالف لونه لون بقية الإبل؟ وعندما أجاب الرجل بنعم، عاجله الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أين جاء هذا اللون؟ فذكر الرجل بأن العامل الوراثى ربما كان هو السبب فى اختلاف لون جمله عن بقية الإبل، فَعَبَّرَ عنه بنزع العرق، فأجابه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إن هذا النزع الوراثى الذى جاء فى الحيوان هو نفسه الذى جاء فى ابنك، فاقتنع الرجل، وسكنت نفسه، وهدأت ثائرته؛ ذلك لأن العرب كانوا يعتنون بإبلهم وتحرى نسلها، حتى كان كل شخص يعرف إبل الآخر من لونها وهيئتها لمعرفته بسلالاتها، فإذا وجد جملا فى مكان ما استطاع أن يقول: إن هذا الجمل من إبل فلان أو من إبل بنى فلان، فإذا جاء لون جمل يخالف ألوان بقية الإبل لم يشك فى ذلك، بل يرده إلى العوامل الوراثية من السلالات القديمة التى ربما كانت فى الأجداد التى لم يحضرها. .

وهكذا ينبغى أن تكون الدراسة الفردية لنفسية المدعو تغوص معه إلى الجذور، وتضرب فى العمق، وتسبر الغور..

وهناك نوع آخر من طرق الدراسات المؤثرة فى سايكولوجية النفس البشرية تأثيرا انفراديا، وهى التى ترتكز على استثارة الحمية والنخوة، مما يدفع الشخص لأن يقلع عن فعل معين أو يندفع لفعل شىء بعينه، وهذا يدخل فيه الجانب العاطفى أيضا كعامل جذب وحفز..

نسوق مثالا حيا وواقعيا على ذلك بقصة شاب جاء للنبى، صلى الله عليه وسلم، وهو ممتلئ حيوية ونشاطا، تدفعه الغريزة الشهوانية الجنسية، متلفعا بثورة الشباب الدفاقة، فقال، فى ثقة واعتزاز بالنفس واعتداد بالشخصية:

يا رسول الله، ائذن لى بالزنى!! فأقبل القوم عليه فزجروه.

وقالوا: مه، مه!!

فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس.

قال: أتحبه لابنتك؟

قال: لا، جعلنى الله فداءك.

قال: والناس لا يحبونه لبناتهم!!

قال: أفتحبه لأختك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم!!

قال: أفتحبه لعمتك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.

قال: أفتحبه لخالتك؟

قال: لا، والله، جعلنى الله فداءك!!

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.

قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[1].

ونلاحظ هنا أن النبى، صلى الله عليه وسلم الداعية، لم يفعل معه ما فعله الحاضرون، بأن أسكته أو انتهره، بل قربه منه، وفى هذا من التـكين لنفسه والتأليف لها، ما يجعله يحب الداعى ويألفه، ويثق به، حتى إذا قال له قولا صدقه، وإذا أرشده اطمأن لإرشاده، كما أنه يزيل الحاجز النفسى بينه وبين الداعى، وهذا من أقوى المؤثرات فى النفس البشرية..

ثم أخذه بهذا الأسلوب المنطقى العاطفى الذى يلامس شغاف قلبه، ويثير عنده كوامن الرجولة والطهارة، وينفره مما أثر على نفسه... وفى النهاية ختم له بما بدأه به، وهو المسح على صدره، والدعاء له فى مودة ومحبة، وهنا يأتى الفارق بين علم نفس الدعوة وعلم النفس العام، وهو الدعاء والالتجاء إلى الله وربط الإنسان بخالقه، وجعل قلبه متعلقا به، مما يجعله يلجأ إليه فى كل أمر يحزبه فى حياته، فتطمئن نفسه، ويهدأ خاطره..

وثَمَّ عامل آخر له أثر كبير على نفسية المدعو، وهو ما نسميه، بعامل بناء الثقة بين الداعى والمدعو، ويكون ذلك بإبعاده عن كل ما يجلب الشك والريب بينهما.

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٥/٢٥٦.

فمن العوامل المساعدة على بناء الثقة، نَأْىُ الداعى بنفسه عن مواطن الشُّبَهِ وتجنب الأماكن التى يرتادها أصحاب النواقص الذين يمجهم المجتمع، وإذا اضطر ـ الداعى ـ إلى شىء من ذلك لغرض معين، فعليه أن يفسر ذلك للمدعو؛ حتى لا يقع فى الشك فيه، وهذا ما فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما رآه بعض الصحابة يسير مع زوجه صفية ـ رضى الله عنها ـ فبادرهما قائلا:

(على رسلكما، إنها صفية بنت حُيَىٍّ، فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! وكَبُرَ عليهما، فقال، النبى، صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا)[1].

وهذا الذى فعله الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع الصحابيين ـ يعتبر عاملا مهما فى دفع الظن، والبعد عن الارتياب، وهو إن لم يَصْدق تمام الصدق مع من خاطبهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولا سيما أنهما تعجبا من أن يظنا برسول الله، صلى الله عليه وسلم ظنّاً، ولكنه أمر قد يحدث بصورة أوضح مع بقية المدعوين:

وقد يرى الداعى أن بعض الناس يحتاجون إلى أن يخصهم ويفردهم بشىء دون الآخرين لشىء يلمسه فى نفوسهم، أو للخوف عليهم من أن يتفلتوا من الدعوة أو أن يظنوا أن الداعى يحابى غيرهم ويؤثرهم عليهم، ففى هذه الحالة لا بأس أن يخصص لهم شيئا دون غيرهم، ولو كان غيرهم أفضل منهم؛ دَفْعاً لما فى أنفسهم، وقطعا للظنة والتهمة به، وهذا ما كان يفعله النبى، صلى الله عليه وسلم، حين قال:

---

(١) البخارى، كتاب الاعتكاف، باب (٨) هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد؟ الفتح ٤/ ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٣٧.

(إنى لأُعْطِى رجالاً، وأَدَعُ من هو أحب إِلَىَّ منهم، لا أُعْطِيه شيئا مخافةَ أن يُكَبُّوا فى النار على وجوههم)[1].

وسوء الظن بالداعى هو من أكبر ما يهدم الدعوة، ويبطل مفعول الأثر النفسى الحميد لدى المدعو، وهو أمر يسعى إليه الداعى، والظن أمر يبنى على التخمين والخرص الذى لا يستند على شىء سوى الشائعات التى يتوهمها الناس من غير مستند، مما يسبب تفسيرا خاطئا لما يقوم به الداعى من عمل أو قول، وقد يصبح الظن خطرا داهما ومرضا عضالاً إذا تمكن من النفس وأصبح وسواساً يخنس فى صدور الناس، مما يهدم جدار العلاقة بين الداعى والمدعو، ويصبح مرتعا مورق الثمار من مراتع الشيطان، ومدخلا سالك السبيل من مداخله؛ ولهذا فقد نهى الله، تعالى، عنه وأمر المسلمين باجتنابه ودفعه وعدم تصديقه، فقال، تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾[2].

وقال، صلى الله عليه وسلم: (إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث)[3].

والظن فى درجاته الأولى قد لا يسلم منه بشر؛ لأنه تفسير لمواقف معينة تصدر عن الآخرين، وتخضع لحدث وتفسير المشاهد أو السامع أو الرائى أو المنقول إليه..

ولكن المنهى عنه هو الذى يتراكم ولا يندفع حتى بعد اتضاح الموقف واتضاح الحقيقة؛ ولهذا كان بعضه إثما ـ وهو النوع الأخير ـ والبعض الآخر

---

(١) رواه أبو داود فى سننه، كتاب السنة، باب رقم (١٥) حديث (٤٦٨٣)، ٤/ ٢٢٠.

(٢) سورة الحجرات ـ من الآية (١٢).

(٣) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى كتاب النكاح باب (٤٥)، ١٩٨/٩، ومسلم بشرح النووى كتاب البر (٢٨)، ١١٨/١٥ والمسند لأحمد ٢٤٥/٢.

ـ النوع الأول ـ ليس كذلك؛ ولهذا السبب ورد عدم الإكثار منه وجعله منهجا، كما جاء فى الآية السابقة، ولقد قيل: ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطِّيَرَةُ، والظن، والحسد..[1].

والظن عملية نفسية، يستطيع الداعى أن يعالجها باتباع خطوات معينة يعلِّمها للمدعو، ويجعله يمارسها؛ حتى تغدو عنده سجية تنساب من غير تكلف. نذكر منها ما يلى:

١ ـ تحويل الظن السيئ إلى ظن حسن، وذلك بالتماس الأعذار للمظنون به، وتأويل كلامه على أفضل الوجوه، وحمله على حسن النية أو الخطأ غير المقصود..

٢ ـ ألا يتابع المرء الظن حتى يحققه، بل يحاول نسيانه بقدر الاستطاعة، بصرف نفسه عنه بأمور أهم تلهيه عنه، ومنها ما قاله، صلى الله عليه وسلم. (ألا أنبئكم بالمخرج منها؟ إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض)[2].

٣ ـ تقديم الثقة فى كل مسلم وتبرئة ساحته؛ حتى يثبت باليقين عكس ذلك، والبعد عن الشائعات التى يرددها أعداء الإسلام لتشويه سمعة المسلم؛ بغية الطعن فى الإسلام، ومحاولة صرف كل تهمة ترد على المؤمن من قِبَل أعداء الإسلام بأنها محض اختلاق، كما أرشدنا إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله، تعالى، عن الإفك، وما السبل التى نسلكها عند سماع ذلك:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

(١) و (٢) انظر الجامع الصغير للسيوطى ١/١٤١ وقال رواه الطبرانى فى الكبير عن حارثة بن النعمان وضعفه، وانظر كنز العمال فى سنن الأقوال لعلاء الدين الهندى ١٦/٢٧ ـ ٢٨ وقال رواه الستة.

(٣) سورة النور ـ الآية (١٢).

٤ ـ الامتناع عن التجسس، وتحسس مواطن الضعف وما ستر من عورات الناس، ودواخلهم؛ لكيلا يطلع الإنسان على ما يتعامل به الناس فى أسرارهم وفى خاصة أنفسهم، مما يمكن أن يراه المتجسس انتقاصا ـ ولو لم يكن كذلك فى الواقع؛ لاختلاف وجهات النظر فى مثل هذه الأمور الداخلية الخاصة...

ولهذا فقد نهانا الله عن ذلك بقوله: ﴿ ... وَلَا تَجَسَّسُوا ... ﴾[1].

٥ ـ التوقف والعزوف عن تعاطى الظن، ومحاولة صرف النفس عنه؛ حتى لا يتعهده المرء، وإن فعل فليكن ذلك لِمَاماً ومصادفة، مع الإقلاع عنه فى الحال؛ لأن التمادى فيه ينميه ويوغر الصدر، مما يجعل التخلص منه صعبا؛ ولهذا فقد نهانا الله عن الإكثار منه، واجتنابه أو اجتناب الكثير منه...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾[2].

(١) و (٢) سورة الحجرات ـ من الآية (١٢).

المبحث الرابع
طرق أخرى للاستقراء الانفرادي لنفسية المدعو

إن من لوازم الداعى أن يكون كَيِّساً فَطِناً، ولا يكون غافلا ولا متبلد الذهن، ولا يكون غِراً يستغفله السذج لينالوا منه ما يريدون، أو يستغلونه ليحصلوا منه على ما يهدمون به الدعوة.

وهذا الاستقراء للحالة النفسية للمدعو يأتى عن طريق الملاحظة الدقيقة والحدس السريع والبديهة الحاضرة، والفراسة العميقة التى هى نور يقذفه الله فى روع عبده المؤمن، فيدرك به ما لا يدركه غيره، ويتسع نطاق الفراسة بمدى قرب الإنسان من ربه، وبكثرة الذكر والورع، وملازمة العبادة، وكثرة النوافل، وتحرى أكل الحلال الطيب، والمراقبة الشديدة المستمرة لجنب الله، تعالى...

ونذكر فيما يلى بعض العلامات الحسية التى يستنبط منها الداعى الحالة النفسية للمدعو.

قراءة تعابير وجه المدعو، بعد التمعن فيه جيدا؛ فإن ذلك يعطيك علامة ودلالة على دواخل النفس، فالوجه مرآة الداخل، وهى (الشاشة) التى تعكس الصورة الداخلية للنفس، وتفصح بحالتها ووضعها عن سريرة

صاحبها، فإذا كان الإنسان خبيثا ماكرا خِبّاً، يظهر ذلك على قسمات وجهه، فتراه ينظر شذرا، ويضحك ضحكة صفراء باهتة تنم عن المكر والخداع، فليكن الداعى معه كما جاء فى الأثر عن عمر، رضى الله عنه: (لست بالْخِبِّ ولا الخِبُّ يخدعنى...).

وإذا كان خائفا ترى وجهه تعلوه صفرة، ويكون لونه شاحبا، زائغ العينين، مضطربا فى كلامه لا يثبت على شىء... كما تدلك نبرات صوته وتلعثم حديثه على خيانته، مثلما تدلك الأقوال المضطربة التى يدلى بها، حيث تكون متناقضة ملفقة وغير مترابطة، مع ضعف فى رباطة الجأش وتماسك القوى..

كما يستطيع الداعى أن يستنتج حالة المدعو النفسية من دراسة خلفيته والدوافع التى دفعته للقيام بهذا الفعل بعينه. مثلما حدث مع ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عندما جاءه شاب وهو فى مجلسه، وقال له فى اندفاع:

هل للقاتل من توبة؟! فقال له ابن عباس: لا!! وعندما سأله الحاضرون: كيف تحول بينه وبين التوبة التى يعلم كل مسلم أن بابها لا يغلق ما لم تبلغ الروح الحلقوم؟! قال لهم: إنى قلت له ذلك، لأنى رأيت القتل فى عينيه!! إنه يريد أن يقتل ثم يتوب!! وهذا الموقف حذق وفراسة من ابن عباس...

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدرس أحوال المدعوين النفسية، ثم يجيب كل واحد ويرشده بحسب مقتضى تلك الدراسة، بما يصلح شأنه؛ ولهذا فقد يكون السؤال واحدا والإجابة متعددة بحسب أحوال السائلين النفسية، كل شخص يجاب بما يصلح حاله...

فقد يأتيه شخص ويسأله أن يوصيه، فيوصيه بعدم الغضب، ويقول له:

(لا تغضب) فيكرر طلبه مرارا بالوصية، فيقول له الرسول، صلى الله عليه وسلم: (لا تغضب)[1].

ويأتيه آخر ويقول له: اشفع إلى ربك فليعتقنى من النار، فيقول له، صلى الله عليه وسلم: (فَأعِنِّى على نفسك بكثرة السجود)[2].

ويسأله رجل آخر عن أفضل الصلاة فلا يصف له ما وصفه للأول، من كثرة السجود، بل العكس من ذلك تماما؛ لما يعرف من حاله أنه يحب تطويل الصلاة أو ما عرف منه من جلد وصبر...، وعرف أن الذى يناسب حاله فى العبادة أن يطيل الصلاة، بعكس الأول الذى ربما لا يستطيع أن يطيل، ولكنه يقدر على كثرة وتعدد الركعات؛ ولهذا وصف للأول كثرة السجود، وقال لهذا: أفضل الصلاة (طول القنوت)[3].

ويسأله آخر أن يدعو الله له أن يكون مجاب الدعوة، فيقول له:

(أَطِبْ مَطْعَمَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ.. وفى رواية: تكنْ مُسْتَجَابَ الدعوة..)[4].

ويقول فى صنف آخر على وجه التعميم: (من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر..)[5].

---

(١) البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب (٧٦) الحذر من الغضب، ١٠/٥١٨.

(٢) رواه مسلم فى كتاب الصلاة برقم (٢٢٥) والإمام أحمد فى مسنده ٤/٥٩، وأبو داود فى سننه، كتاب التطوع باب رقم (٢٢).

(٣) رواه مسلم فى كتاب الصلاة، باب أفضل الصلاة طول القنوت.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٠/٢٩١، وإتحاف السادة المتقين للزبيدى ٥/٤١، والترغيب والترهيب للمنذرى ٢/٥٤٧، ورواه ابن كثير فى تفسيره ١/٢٧٢.

(٥) ذكره ابن حجر العسقلانى فى كتاب. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية حديث رقم (١٣٣٩٣).

وهكذا تكون دراسة أحوال المدعو، لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تنسج على منوال واحد؛ ذلك لأن خالق النفوس البشرية لم يخلقها سواء، فليفطن إلى ذلك الدعاة، ولا يكونوا من الغافلين. . .